حسان بن ثابت وقضية الضعف في شعره [1]

التعريف به :

هو حسان بن ثابت بن المنذر، ينتهي نسبه إلي قبيلة الخزرج، وأمه: الفريعة بنت خنيس الخزرجية، فهو خزرجي الأب والأم، ويمت بصلة قرابة إلي رسول الله ﷺ، فهو من بني النجار أخوال النبي عليه السلام. وكنيته أبو الوليد وأبو الحسام وأبو عبد الرحمن .

عاش حسان حياة طويلة فلقد قيل إنه عاش ستين عاما قبل إسلامه وستين أخري بعد إسلامه ، ويقصر البعض عمره إلي ثمانين عاما نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام .

كان في الجاهلية كثير التردد علي قصور الغساسنة في الشام يمدحهم ويطلب رفدهم ، وينال عطاءهم وخاصة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة ، وكان علي صلة بالنعمان بن المنذر أبي قابوس ملك الحيرة، وكان بينه وبين شاعري الأوس : قيس بن الخطيم وابن الأسلت عداوة وله معهما مناقضات شعرية [2]. وكان يذهب إلي سوق عكاظ ، وله صحبة مع النابغة ، وكان يعرض عليه شعره ، ولكن رغم تلك الصحبة فقد قدم النابغة الأعشى علي حسان[3] .

---

(١) انظر هذا الموضوع في :
- الأغاني / الأصفهاني / جـ٤ ، صـ٢.
- الكامل / المبرد مواضع متفرقة.
- طبقات فحول الشعراء ابن سلام / جـ ١ ،صـ٢١٥ .
- السيرة النبوية لابن هشام .
- أسد الغابة / ابن حجر العسقلاني .
- حسان بن ثابت شاعر الرسول أ. د سيد حنفي حسنين ط وزارة الثقافة سنة ١٩٦٤.
- جمهزة أشعار العرب / أبو زيد القرشي / شرح : علي فاعور / صـ ٢٨٥ – ط أولى– دار الكتب العلية .بيروت سنة ١٩٨٦ .
- شعر الدعوة عند حسان بن ثابت / د. طارق سعد شلبي / ط زهرة المدائن سنة ٢٠٠٣ .
- العصر الاسلامي/ د. شوقي ضيف ، ط دار المعارف سنة ١٩٧٨ .
- حسان بن ثابت / محمد أبراهيم جمعة / ط المعارف سنة ١٩٨٢
- حسان بن ثابت / د . محمد طاهر درويش / ط دار المعارف سنة ١٩٧٦ .
- الشعر والشعراء/ ابن قتيبة/ تحقيق أحمد محمد شاكر. ط دار المعارف، سنة ١٩٨٢ ج١، ص ٣٠٥

(٢) انظر ديوان حسان بن ثابت

(٣) انظر/ نقد الشعر/ قدامة بن جعفر/ د عبد المنعم خفاجي/ ص٩٢/ ط الأزهرية سنة ١٩٨٠، وانظر الموشح/ المرزوباني/ تحقيق علي محمد البجاوي/ ص٦٩/ ط نهضة مصر/ بدون .

وقد كرس حسان جانبا من شعره في الجاهلية للتكسب ، وجانبا آخر للمنافحة عن قوم وفي هذا الجانب الأخير شعر كثير في الهجاء ضد قيس ابن الخطيم.

أسلم حسان يوم أن هاجر النبي ﷺ إلي المدينة المنورة ، وانبرى هو وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة للرد علي الشعراء المشركين وللدفاع عن النبي الكريم والدين الإسلامي الحنيف ، وكان الرسول ﷺ يحثه علي قول الشعر ويدعو له .

وقد استحق سيدنا حسان أن يلقب شاعر الرسول ﷺ؛ لأنه وقف وقفة المسلم الملتزم الذي حسن إسلامه ، وجاهد جهادا مستميتا دفاعا عن النبيﷺ وعن الدعوة الإسلامية ، وعاش يناضل بلسانه ضد أعداء الإسلام من مشركين ويهود وأخذ يمدح النبي والمسلمين ويعلي من راية الإسلام.

والحق أن حسان رضي الله عنه قد أوقف قريحته وبلاغته علي الإسلام يرد عنه كيد الكائدين ويذود عنه حقد الحاقدين ويمدح النبي الكريم ويتغني بوقائع المسلمين، ويدعو القبائل إلي اعتناق الدين الحنيف، وإذا هزم المسلمون استطاع أن يحول الهزيمة إلي مجال للفخر بما لديه من حنكة وتجربة وشاعرية .

لقد أبلي حسان في ذلك كله بلاء عظيما ، ومن أجل هذا عرف بشاعر الرسول ﷺ وكان شعره رضي الله عنه أشد وقعا علي المشركين ؛ ولذا قال ﷺ: أمرت عبد الله بن رواحة (يعني أمر بهجاء قريش)، فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن وأمرت حسان بن ثابت فشفي، واشتفي وقال عليه السلام له " شن الغارة علي بني عبد مناف فو الله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام " ومن ثم كان لحسان مكانة مرموقة في الإسلام فلقد جله النبي ﷺ وقدره ورفع من منزلته وأعلى من قدره إذ لم يتخل حسان لحظة في الدفاع عن حوزة الإسلام ،ومما يدلنا علي إكرام النبي له وتقديره إياه أنه جعل له منبرا في

المسجد ينشد عليه الشعر ، وكان يقسم له في الغنائم بعد عودته من الغزوات كأي محارب شارك فيها بسيفه ، وأهدى له بستانا كما أهدي له سيرين أخت مارية القبطية وهي التي ولدت له ابنه عبد الرحمن كما أهدى له بيرحى وهو قصر بالمدينة كان لأبي طلحة .

وكان الخلفاء والصحابة يقدرونه أيضا ، ويذكرون له دوره الخطير الذي قام به في خدمة الإسلام ، ولذلك فرضوا له العطاء وأجزلوه ، ووفروا له أسباب الحياة الهانئة الهادئة .

شعره :

ينقسم شعر حسان قسمين : جاهلي وإسلامي ، وقد أجاد فيهما واحتل مكانة مرموقة والقسم الإسلامي هو الذي يهمنا ، والحق أنه أجاد فيه وأتقن وتفوق وخاصة في الهجاء والمناقضات والشعر الحربي والمديح والرثاء وشعر الدعوة الإسلامية.

إن هذا القسم هو ميدان جهاده الحقيقي في سبيل الدعوة الإسلامية ، وهو الذي جعل لحسان مكانة خاصة حظيت بهالة من التقدير والاحترام .

وله في مديح الرسول ﷺ قصائد جليلة تعد من عيون التراث الشعري ، ولعل من أشهر مدائحه النبوية قصيدته التي يقول فيها :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النفع موعدها كداء
يبارين الأعنه مصغيات علي أكنافها الأسل الظماء
وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم لا نقوم ولا نشاء [1]

ومن مدائحه التي اشتهر بها قوله في يوم بدر :

فينا الرسول وفينا الحق نتبعه حتى الممات ونصر غير محدود
مبارك كضياء البدر صورته ما قال كان قضاء غير مردود [2]

---

(١) ديوان حسان / صـ٧٣ – ٧٥ .
(٢) ديوان حسان ،صـ٢٤٢.

ومن مدائحه المشهورة قصيدته التي يرد فيها علي شاعر الوفد التميمي والتي يقول فيها :

إن الذوائب من فهر وإخواتـــهم قــد بينوا سننـــا للناس تتبـــــع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
أكرم بقوم رســـول الله قائدهـــم إذا تفرقت الأهواء والشيـــع (١)

ويلحظ علي مدائح حسان أنها لم تتخلص تماما من طابع المديح الجاهلي لغة نسقا إلا نادرا فهو في الأولى يقف علي الديار ويرنو إلي الأطلال متحسرا كفعل شعراء الجاهلية إذ يقول في مطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء إلي عذراء منزلها خلاء
ديار من بني الحسحاس قفر تعفيها الروامس السماء(٢)

وفي القصيدة الثانية نجد الحماسة والفخر والإشادة بالبطولة ، وليست هذه القصدة فحسب هي التي يعلن فيها الفخر بالبطولة بل نرى ذلك في قصائد أخري .

وفي القصيدة الثالثة لم يكن النبي ﷺ هو محور المديح بل الأنصار قوم الشاعر وإنما جاء مديح النبي ﷺ عرضا.

ورغم ذلك فإننا نجد صورا إسلامية يستمدها الشاعر من الدين الإسلامي مبينا من خلالها فضل النبي عليه السلام، وداعيا إلي اعتناق الدين الكريم ومبادئه ، وذلك كما نرى في قوله :

أعني الرسول فإن الله فضلـــــه علي البرية بالتقوى وبالجود
واف وماض شهاب يستضاء به بدر أنار على كل الأماجيد(٣)

وهو في تضاعيف هذا المديح يتعرض لهجاء المشركين ردا علي هجائهم النبي ﷺ وحين يفعل ذلك تختلط عنده المعاني الجاهلية والإسلامية. وقد اتخذ هجاؤه المشركين طابع التعبير بالهزائم والتنديد بالمخازي علي

---

(١) ديوان حسان ، صـــ٢٣٨ ، ٢٣٩.
(٢) ديوان حسان / صـــ ٧١ .
(٣) ديوان حسان ، صـــ ٢٤٢ .

الطريقة الجاهلية وامتزج ببعض الصور والمعاني الإسلامية ، وذلك كما نقرأ في قوله يوم بدر:

وعلونا يوم بدر بالتقى طاعة الله وتصديق الرسل
وتركنا في قريش عورة يوم بدر وأحاديث مثل
وقتلنا كل رأس منهم وطعنا كل حجاج رفل (١)

وهو في أثناء رده علي المشركين يعلن أنه فداء الرسول ﷺ محتسبا الأجر عند الله عز وجل ، وفي هذا يقول مخاطبا أبا سفيان :

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء
هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء(٢)

قضية الضعف في شعر حسان :

ولكن رغم ذلك كله فإن ثمة دعوي باطلة مؤداها أن شعر حسان الإسلامي قد ضعف وأصابه الوهن والركاكة .

والحق أن هذا الشعر الإسلامي لدي حسان لم يضعف ولم تصبه الركاكة ولرد هذه الدعوي الباطلة وتفنيدها يمكن القول :

١) إن شعر حسان الإسلامي قد أصابته الرقة ، ولم تصبه الركاكة، وقد حاول حسان تعليل هذه الطاهرة ، "الرقة في شعره الإسلامي " حينما سئل عنها فردها إلي أن الإسلام يدعو إلي الخير والحق .

وقد قيل له، "لأن شعرك أو هرم يا أبا الحسام فأجاب: إن الإسلام يحجز عن الكذب والشعر يزينه الكذب " وكأنما بذلك يرد علي الأصمعي الذي جاء فيما بعد وتفرد بهذه المقولة: " الشعر نكد بابه الشر .

وفي رواية ؟ الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل فإذا أدخل في الخير ضعف ولأن هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره . وفي رواية: " الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان ألا تري أن

---

(١) ديوان حسان / صـ ٩٥ .
(٢) ديوان حسان / صـ٧٥ / ٧٦ .

حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي وحمزه وجعفر وغيرهم لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة ....."[1]

- ولكن ماذا يقصد الأصمعي الذي تفرد بهذه المقولة ؟

- هل يقصد بها السهولة والتخلي عن بعض ما في الشعر الجاهلي من ألفاظ غريبة أو أسلوب وعر؟.

- إن كان كذلك فليس ذلك بعيب بل أنه دليل علي تأثر حسان ببيئته وبأسلوب القرآن الكريم السهل الناصع وإلا كيف سيظل علي شئ من الفظاظة والجلافة وهو الإنسان المسلم الملتزم بتعاليم دينه .

- وإن المقصود **<u>بالليونة الضعف والهبوط وانحدار المستوى</u>** الفني فإن ذلك غير صحيح لأن شعر حسان ليس كله رثاء بل إن أقل ما فيه هو الرثاء.

- وإذا اتفقنا مع الأصمعي علي هذا الأمر فمعني ذلك أن الشعر الإسلامي كله قد انتهي إلي الهبوط والسقوط وهذا ما لم يقل به أحد إلا المضللون ، وربما كان حكمه علي **<u>شعر منحول علي</u>** حسان.

ومن الذي يقول إن الشعر نكد وأنه يقوي في الشر ؟ إن هذه دعوي مفردة وكلمة لم يقلها إلا الأصمعي ولم يتابعه عليها أحد مما يجعله مخالفا لإجماع أهل اللغة و الأدب ، فمقياسه مقياس شخصى لأنه كان مولعا بالغريب من اللغة .

هذا بالإضافة إلي أن حسان قد خاض في موضوعات جديدة لم يألفها الشعراء العرب من قبل كما سنشير إلي ذلك فيما بعد ومقولة الأصمعي تخالف أقوال العلماء والنقاد وأرائهم في شعر حسان .

إن المسألة كلها تعود إلي أن الإسلام قد غير من طبيعة الحياة الجاهلية القاسية المملوءة بالفظاظة و الجلافة وقضي علي جوانب الشر فيها وهي الجوانب التي يطلبها أهل الصحراء ويريدون أن ينمو الشعر في ظلها.

---

(١) الموشح / المرزباني صـــ٧١ . وانظر الشعر والشعراء / ابن قتيبة / جـــ١ صـــ٣٠ .

٢- يري البعض أن الضعف في شعر حسان مرده إلي كثرة الارتجال وسرعة الاستجابة للمواقف وهو الداعية للإسلام والمؤرخ للأحداث ، وهي أحداث سريعة متلاحقة ، ولذلك كان حسان مضطرا إلي الإسراع في العمل الفني ليلاحق سرعة الأحداث ، ولم يجد الفرصة الكافية للتجويد الفني في عمله أو الإطالة فيه ولذلك نري د . سيد حنفي حسنين يقول " وأهم ما يلاحظ علي معظم شعر حسان الإسلامي أنه شعر مقطوعات وليس شعر قصائد وهذا النوع لا يتطلب مقدمات لأن ظروفه تدفع الشاعر إلي موضوعه مباشرة دون تقديم وكانت الحياة حول حسان وبين الرسول والمسلمين تقتضي منه أن يكون سريعا في مقاومة المشركين بفنه حتى يبطل كيدهم ، ويرد غوائلهم كذلك كانت الأحداث تجري بسرعة لا تترك للشاعر فرصة أن يتأمل ويفكر لينظم وإنما تدفعه دفعا لأن يلاحقها بنفس سرعتها [١].

ويؤكد علي هذا الرأي د. طارق سعد شلبي حيث يقول " لم يلتزم مذاهب واتجاهات غيره من الشعراء ولم يعمد إلي التكلف في شعره ولكنه يرسله كما توحي به القريحة وكثيرا ما اضطرته بعض المواقف إلي الارتجال "[٢]

٣- عبر حسان عن موضوعات **ومعان جديدة لا عهد له وللشعراء بها** من قبل وعبر عن أشياء لم تعرفها الحياة العربية ولم يتحدث عنها الشعراء السابقون فهو الرائد في هذا المجال ولابد للرائد من هنات ولم تكن أمامه نماذج يحتذيها أو يقلدها ، والحق أنه خاض " تجربة خطيرة لم يتعرض لها شاعر من قبل "[٣] وكان عليه أن يصوغ نماذج جديدة ويرتاد أرضا جديدة بكرا في الشعر لم يألفها أحد قبله ، ومن ثم كان من البدهي ألا تستقيم له مقومات الصناعة الفنية الاستقامة الكاملة وكان لابد أن تتعثر قدماه بعض الشئ.

---

(١) حسان بن ثابت / د. سيد حنفي حسنين / صـ ١٦٨ .
(٢) شعر الدعوة عند حسان بن ثابت / د طارق سعد شلبي / صـ٢٣.
(٣) حسان بن ثابت / د . سيد حنفي صـ١٩٨ .

٤- يعتقد البعض أن شعر حسان قد اختلط بأشعار غيره من الأنصار مثل كعب بن مالك وعبد الله بن رواحه وغيرهما .

٥- يرد البعض الضعف في شعر حسان إلي كثرة ما دخله من وضع وانتحال وما دس عليه [١] ففي الديوان ما يقرب من أربعمائة بيت منحولة عليه، فشعر حسان لم يضعف بعد الإسلام وإنما الضعيف فيه هو الشعر المنتحل عليه ومن تلك الأشعار الموضوعة ما صنعته قريش [٢] وما حمل عليه من شعر مملوء بالغيظ علي قتلة عثمان ليظهر الأمويون أن شاعر الرسول كان منحازا إلي صفهم وليغسلوا عار الأشعار التي نظمها في هجاء أسرتهم، وقد تنبه ابن سلام إلي ذلك حيث يقول " حمل عليه ما لم يحمل علي أحد ، لما تعاضهت قريش واستتبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تنقى[٣]

وقد اعترف الأصمعي بذلك حيث يقول : تنسب إليه أشعار لا تصح عنه ولنا بعد ذلك كله أن نتساءل :

❖ كيف يضعف شعر حسان في الإسلام وهو المدافع عنه ، وقد اعترف الكفار بقوة شعره ومدي تأثيره فيهم ، ولا أدل علي ذلك من أنه حينما رد علي شاعر الوفد التميمي قال الأقرع بن حابس إن هذا الرجل يعني النبي صلي الله عليه وسلم لمؤتى له " ميسر له " ولشاعره أشعر من شاعرنا "[٤]

❖ كيف يضعف شعر حسان وقد كانت قريش تفزع منه فزعا شديدا وتهابه؟

❖ كيف يضعف شعر حسان والرسول يجنده للرد علي الكفار ويشهد علي ذلك بقوله " شفي واشتفي .؟

❖ كيف يضعف شعر حسان وهو الذي استقي من القرآن الكريم وارتكز علي تعاليم الاسلام وأحاديث النبي ﷺ ؟

---

(١) انظر : حسان بن ثابت / محمد إبراهيم جمعه / صـ٤٦ .
(٢) انظر حسان بن ثابت / د. سيد حنفي / صـ١٩٨ .
(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام / جـ ١ ،صـ٢١٥.
(٤) سيرة ابن هشام ، قسم ٢ – جـ٤ ، صـ٥٦٧ وانظر الأغاني / جـ٤ ، صـ ٩.

- هل ضعف لأنه غير من شعره ليتلاءم مع المنهج الاسلامي والشريعة السمحة الغراء ؟
- هل ضعف لأنه استخدم معيارا جديدا وميزانا مختلفا وهو المعيار الإسلامي؟
- هل ضعف لأنه تأثر بالأسلوب البياني المعجز والأغراض النبيلة ؟

كيف يضعف والحارث بن عوف يستجير برسول الله ﷺ ويستعيذ به من شعر حسان قائلا " اكففه عني يا محمد وأودي إليك دية الخفارة .....أنا عائذ بك من شره فلو مزج البحر بشعره مزجه "[١]

إن دعوي ضعف شعر حسان الإسلامي لا تستند علي أدلة منطقية قاطعة وهو رأي غير منصف ويكفي أن نسوق قول ابن خلدون في هذا المقام إذ يقول ..." إن كلام الإسلاميين من العرب أعلي طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة .... أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم .... والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير ""[٢]

رأي العلماء والنقاد في حسان :

١- يروي الأصفهاني عن أبي عبيده قوله عن حسان " فضل حسان علي الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي ﷺ في النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام .....واجتمعت العرب علي أن حسان أشعر أهل المدر.... واتفقت العرب علي أن أشعر أهل المدر أهل يثرب .....وعلي أن أشعر أهل يثرب حسان بن ثابت """[٣]

٢- حينما تحدث ابن سلام عن شعراء المدينة قال " أشعرهم حسان بن ثابت وهو كثير الشعر جيده "[٤]

---

(١) الأغاني – جـ ٤، صـ١١.
(٢) مقدمة ابن خلدون / صـ٤٢٦، ط دار ابن خلدون – بدون .
(٣) الأغاني / جـ٤/ صـ٣.
(٤) طبقات فحول الشعراء / جـ١،صـ٢١٥.

٣- قال المبرد " وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان فإنهم يعدون ستة وكلهم شاعر"[١]

٤- يشهد الأصمعي نفسه لحسان فيقول "حسان فحل من فحول الجاهلية"

٥- قال الحطيئة: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول :

يغشـــون حتى ماتهر كلابـــهم لا يسألون عن السواد المقبل

٦- يضع له أبو زيد القرشي قصيدة علي رأس المذهبات "[٢]

٧- قال الأصفهاني " حسان فحل من فحول الشعراء " وقال إن شعره كان من مفاخر الأنصار علي الشعراء "[٣]

٨- يشهد له النابغة الذبياني و الأعشى بقولهما " إنك لشاعر "

٩) يشهد له النقاد بأن بيته الذي يقول فيه:

ما إن مدحت محمدا بمقالتـــي لكن مدحت مقالتي بمحمد

قد سبق به كل الشعراء إلى هذا المعنى ولم يأت بعده من زاد فيه .

---

(١) الكامل المبرد ،جـــ١/صـــ.

(٢) جمهرة أشعار العرب / أبو زيد القرشي / صـــ ٢٨٥ / تحقيق علي فاعور ط ١ دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٦.

(٣) الأغاني / جـــ٤،صـــ٣.